قصة

الصابرون

للاستاذ شكري شعشاعة

كان سالم الربيع لايعرف دنياه سوى هذه القطعة من الارض ، يحرثها بذاته إذا جاء موسم الحرث ، ويحصد زرعها بذاته كذلك إذا جاء موسم الحصاد ، ثم ينام فلا يستيقظ إلا على وجه الشتاء .

ولكن حياته القطرية هذه تلوّنت أخيراً بطارىء لم يلمّ به أو يلمّ بأرضه ، وإنما ألمّ بأرض جاره ، ولم يك ذلك لأنها انتقلت الى يد جديدة على غير توقع ، وإنما كان ذلك لأنها انتقلت الى يد شخص من هؤلاء المدللين الأعزاء على الظروف ، فهمّه ألا يكون هذا الجار الجديد من أمثاله ، ثم أن تضيع على هذا النحو ارض من العشيرة .

وتعاقبت الأيام وهو يعيش على شيء من التشاؤم . ثم كان يوم فاذا هو يستقبل في بيته رسولاً وجيهاً ينهي اليه رغبة جاره في أن يبتاع منه ارضه . ونحن نصغي فنسمعه يقول لهذا الرسول : —

« لو أني أملك غير هذه الأرض لتقربت بها ، ولكنها دنياي جميعاً ودنيا هؤلاء الاطفال من بعدي . وأحسب صاحبك يقدّر ويعذر » .

ورأى أن يتشاغل فمال الى جراب بين يديه فيه شيء من التبغ ، فجعل منه لفيفة ثم أخذ يدخنها وباله يطوف حول أرضه . إنها ليست بالشيء الذي يباع وأطفاله يعيشون ، هي تراث عريق منذ أيام الفاتحين ، وعليه كما ورثها من أجداده أولئك أن يورثها أبناءه هؤلاء من بعده .

طاف هذا بباله في ساعته تلك وهو بين يدي محدثه ذاك يجلس وقوراً ، وربما كان مع

ذلك ساخراً يضحك في سره من هذا الطمع لا يتسع أمله . وكم اتخذ الفقر من الفلاح شره لا يحس إلا نفسه . !

ويحسب رسول التجار نفسه كان يعيش في شيء أو أشياء من مثل ما كان يعيش عليه سالم ، فقد كان يعرف أن ليس هناك ما يحمي الضعفاء إن شاءوا أن يستمسكوا بشيء أو يدافعوا عن حق ، فما يملكون وما يكسبون ينبغي أن يؤول إلى هذه الطائفة الراقية من الناس . ولو كان ذلك من السبل التي لا تعرف الشرف .

كان يعرف هذا كله ، ويعرف أكثر منه ، كان يعرف روح الشعب الغبية تنام على الفقر والبؤس ، ولا تفكر في حق وتسأل عنه ، ذلك بأنه لم يك بعيداً عن المسرح ، فقد كان له دور يقوم به مع الممثلين حين يتنزلون ، ودور مع المنافقين الخائفين حين يستغفرون ويخنعون . وكان له من أجل هذه الشطارة أثر في تخطيط سبل الازدهار في البلد وأهله .

لسنا نزيد إذن أو نبالغ حين نتصور أنه كان يضحك في مجلسه ذاك من هذا الفلاح الساذج، ثم من صاحب السعادة موفده ثم من نفسه : يضحك من سالم وقد رآه قد اعتذر يحسب نفسه قادراً على أن يستمسك بأرضه ، ويضحك من صاحب السعادة وقد رأى طمعه في أراضي الضعفاء يكاد يجري في سرعة النور . ويضحك من نفسه ، إنه كالصياد المغتر يلقي بشبكته وهو يعلم أن ليس له من حظ فيما يصطاد .

ومهما يكن من أمر هذا الرسول الوسيط فإنا يعنينا أن نقف على جوابه . قال يرد على سالم : —

« إنك لتخطيء أكبر الخطأ برأيك هذا ، بل وتتعب نفسك وتحرمها من حظوظ قد تتاح لك حين تستجيب لرغبة جارك ، فأنت تعلم بصلته بمن تعرف سلطانه ، وتعلم بما أعطته هذه الصلة من قدرة على أن يؤلب عليك ، فلا يلقاك الجندي إلا غاضباً ، ولا يلقاك الضابط أو يلقاك الحاكم أو أي من الأعوان إلا متجهماً ، فتتعثر خطاك حتى تجد شيخ العشيرة وتصبح فلا تستطيع قضاء حاجة من حاجاتك . أما إذا تخليت عن أرضك فأنت إذن قادر على أن تعيش كأعز إنسان في العشيرة ، وقادر على أن تتزوج في أي وقت تريد ، وممن تشاء من هؤلاء الصبايا ذوات العيون الفاتنات عندكم ، فما زوجتاك هاتان بشيء . ثم أنت قادر على أن تستبدل بهذا البيت المتهدم بيتاً جديداً ترفع رأسك عنده ، وتملأ بهذه البسط والطنافس الجديدة تبتاعها من المدينة وتبسطها فيه للتشريف .

« ما أنا غير ناصح يريد لك الخير ، فاسمع لما أقول ولا تجعل فرصة العمر تضيع عليك

وباحر فاشتر بثمن الارض بعض المواليد من الغنم ، واعهد بها الى ولد من أبنائك يرعاها عند أطراف المياه حيث العشب الكثير ، فان فعلت ، يغنك أربعك عنب اضعاف ما يأتيك من غلة أرضك هذه التي كانت منذ القرون الوسطى، وما زالت تزرع ولا تستريح .

« ثم لا تنس مزية القرب من جارك الجديد ، فانت تعلم بأنها شيء عزيز يتمناه الشيخ نفسه ، ولا شيء يمنعك من أن تنال مثل هذا الحظ عنده متى شئت » .

وإذ فرغ مما أراد أن يزين للرجل رآه يرفع رأسه ويتجه اليه بنظره وهو يقول فيما رد عليه :

« سمعت منك ، ولقد كان بي أن آخذ برأيك الى ما ذكرت من هذه الحقوق الطيبة لو أني استطعت أن أحلها من قلبي محل أرضي على صغرها وقلة جدواها . وما أخفي عليك فقد كنت أصغي اليك وكان في صدري شيء يحدثني معك عما يربطني بها منذ أزمان تتصل بآبائي الاولين ، والى أزمان تمضي مع أبنائي الحاضرين ثم تتصل أحفادي القادمين . وإذا كان لي من رجاء شاكر فانما هو أن توفر علي وعليك » .

كان ذلك في عشية من عشيات النور الحالمة ، وكان قد بقي في نفس سالم الربيع شيء من حديث ضيفه ، فكان يتلفت نحو هذا الشيء بأفكاره يرسلها حوم حائرة كالطير ضلت أوكارها ، وكلما تقدمت العشية واشتد الغسق ، هاجها الشوق إلى الاتجاه الصحيح .

ولكن الماضي لا يتركنا أبداً ، فنحن حين تحزبنا الايام أو نقف على مفرق الطريق نراه ينبعث في خواطرنا حيًا ومن تلقاء نفسه ، فيتمثل لنا سعيداً أو شقيًا ، ويتحدث الينا محرضاً أو منذراً ، وكالاطياف على الشاشة البيضاء نشهده يتحرك في مواكبه المثيرة .

واستطاع سالم في ليلته تلك أن يرى آباءه الماضين ، وأن يمايشهم فيتحدث اليهم ويتحدثون اليه ، ويفهم منهم ويفهمون عنه ، وأن يتحسس منهم ذلك العيش الذي كانوا يعيشون عليه ، فيجده على بساطته تلك كان وديعاً راضياً مطمئناً ، وليس فيه هذا القلق الذي يبيض عليه الناس في يومه . وما أوهن الليل إلا قليلاً حتى كان قد عاد الى نفسه على هدى الاشباح .

وتمضي الايام فاذا صاحب السعادة وعقيلته ينزلان على شيخ العشيرة ضيفين عزيزين ، وإذ يجيء أوان الطعام وتبسط المائدة السخية لا يمدان اليها يداً وانما يعلنان أن على حلبة عرضت ، وإن قضاءها عند الشيخ ، فان هو فعل ، أكلا من طعامه وشكرا له صنيعه .
ولم يكن للشيخ من سبيل إلا أن يستدعي سالماً ، وإلا أن يطلعه على ما كان ثم

(٣١) لقد صدق باسكال العالم الرياضي الفرنسي إذ قال اننا نعطف على من كان به اعوجاج في قدمه لسبب عاهة ولكن لا نعطف على من كان به اعوجاج من فكره، لان الاول لا بد أن يعترف إذا مشى باعوجاج قدمه أما الثاني فانه ينكر اعوجاج فكره ويحاول أن يثبت اننا على اعوجاج في التفكر — ومع صحة رأي باسكال ينبغي ان لا نعنف مع صاحب الرأي المعوج وان نعطف عليه وان نعتقد أن ذلك من آفة في عقله كآفة القدم المعوجة أو كآفة الصمم أو البكم وان نتذكر اننا أيضاً كثيراً ما يدفعنا التحيز والتشيع إلى الحكم بالباطل فيظهر اعوجاج فكرنا بالتحيز أو العاطفة وان كنا لا نأبه له.

(٣٢) إن للفكر أخيلة ومن أجل ذلك صار العلماء حتى الافاضل منهم لا يتحرجون من تضليل قرائهم وتضليل نفوسهم كي يثبتوا صواب فكرهم في أثناء بحثهم إما من شغفهم باثباته وإما لنيل المدح من الناس ولكن سوء استعمال القوة الفكرية مكروه مثل سوء استعمال القوة البدنية وهم إذا وصلوا بعد ذلك إلى الصواب فهذا الصواب يكون مثل الممالك التي نزورها في الاحلام وقد نعرف أننا في أحلام إذا فكرنا في طريق الرحلة اليها (وهذا كما في قصة الباحثين عن المكروب) وإذا كان هذا شأن العلماء الافاضل في البحث العلمي فهو أحرى أن يكون شأن الناس عامة في حياتهم اليومية.

(٣٣) إن أهل الاستكانة تعوزهم الجرأة على طلب حقهم فاذا لم تتم أنت لهم بكل حقهم ركبت الشطط في معاملتهم وسهل عليك الظلم واغتصاب حقوق الناس والرغبة في استثمار جهودهم بأقل مما يقتضيه العدل إذ قد تعد استكانتهم دليلاً على نيل ما يستحقون، ولا أمر يتلف صحة رأي المرء في العدل مثل العيش بين اهل الاستكانة فاذا عاش بين غيرهم بعد ذلك ظهر قلبه ودهش لظهور ظلم لم يكن يعتقده ظلماً.

(٣٤) يقولون إن الكذب لا يصدق ولا يقبل لانه لا أساس له ولا قوة فيه ولكن لكل كذبة وقت وميعاد وهوى في النفوس ولا يمنع من تصديقها أنها لا أساس لها وقد تكون لها قوة شر كبيرة مستمدة من قوة من يؤمن بها — (وهذا يذكرنا قول تاكري إن الكذب قد يكون أصغر من النقطة ولكنها مع ذلك كالنقطة السائرة التي تحتل مكاناً كبيراً وترسم خطاً طويلاً).

(٣٥) قد يكون اليأس كالنوم يجدد قوى النفس والتفكر ولكنه إذا صار عادة ونيراً أصبح شللاً لها.

(٣٦) كثيراً ما يؤدي الندم إلى اليأس من أداء الخير مع أن المفروض انه ينبغي ان

يؤدي إلى معاودته والتزامه وقد يؤدي إلى اليأس من أدته نظير لأنه يحسب أن ما جناه من الشر دليل على جبانه كما يكون مثله مثل من يدعي التدفئة من السائل الأسود تغطي على جميع ثوبه بدلاً من تلافيها من أول سقوطها ، أو كمن يجد صخرة في النهر أو عثرة في نقطة في جزء من الماء فيحسب أنها تدل على الماء كله .

(٣٧) إذا أردت أن تتهم عصرك فاقرأ ما يكتب فيه من القصص فإن المرء كثيراً ما يريد أن يختبر نفسه في نفس الناس كي يتمادى في وصف الرذائل وصفاً مغرياً يحببها إلى الناس وهو يزعم أنه ينهاهم عنها .

(٣٨) قد تتضح حياة المرء ما التبس في قوله فهوبز الفيلسوف الانجليزي الذي زعم أن الدولة هي كل شيء وأن الناس إذ أنشأوا الحكومات أسلموا لها كل حق قد اعترف للورد كلارندون أنه إنما فعل ذلك كي يتحبب إلى الحكومة فتسمح له بالعودة من منفاه وبدولني قد نشر رسائل لماكيافلي يستعطف فيها بعض الامراء ويشكو إليهم سوء حاله ويقول فيها إن مبادىء الطغيان التي ذكرها في كتابه (الامير) إنما ذكرها تزكية لأهليته في الحكم وانه من أجل ذلك يستحق أن يعان على أمره بالمال كصدقة وقد زعم كتاب آخرون أن هؤلاء الكتاب إنما هالهم انقسام الآراء فرأوا أن للأمراء الحق في توحيدها صيانة للأمن وجلباً للوحدة بأية وسيلة حتى الوسائل العنيفة الشديدة (وذلك هو مازعم ماكولي في رسالته عن ماكيافلي) — وربما كان الدافعان موجودين في نفس القائل عند قوله ماذكر .

(٣٩) إن من قلة العقل أن يرفض المرء كل لطف أو عطف وأن يسيء به الظن لأنه لا يعرف سببه والباعث له فانه يكون كمن يرفض ماء النهر لأنه لا يعرف منابعه .

(٤٠) بعض القواعد الأساسية في الشرائع لا يعمل بها الناس في حياتهم ومعاشرتهم بعضهم لبعض فالمبدأ الذي ينص على أن كل متهم بريء حتى تثبت إدانته لا يعمل به الناس وكذلك المبدأ الذي يشرع أن الشك ينبغي أن يجعل في مصلحة المتهم لا يأخذ به الناس في حياتهم الخاصة فيننا عن ذلك قلة التسامح ولو عملوا بهما كانوا أقرب إلى التقوى والعدل والتدين

(٤١) لقد صدق جوته إذ قال في قصة فوست (إن الذي يصمم على أن يعد غيره خطيء إذا كان ذا لسان ذرب وذلك لأن الطلاقة والمهارة في الكلام قد تهزم قوى ملكات العقل .

(٤٢) إن عمل الشر لا يتوقف على كبر شأن صاحبه ومع ذلك فان الناس كثيراً ما يظنون ان الرجل الحقير لا يستطيع عمل شر كثير حتى وهم متأثرون بما يقول أو ما يصنع من الشر .